نكبتنا في فلسطين
إعادة تشخيص لمفهومنا لها لكي نضمن عدم تجذيرها في مستقبلنا

خليل نخلة
16 أيار 2008، الناصرة

1- للتنويه فقط: أنا من تلك الفئة السكانية التي تعرف نفسها، أو يعرفها الآخرون، بجيل النكبة، أي كنت مولودا عندما تم تفتيت فلسطين، وعندما طردنا من قريتنا في الجليل بهدف تغييبنا، كسكان فلسطين الأصليين، عن تاريخنا وجغرافيتنا. كان لي من العمر آنذاك خمسة أعوام.

2- هذه محاولة أولية لإعادة تشخيص مفهومنا للنكبة. ليس واضحا لي كيف ومتى، بدأنا— على المستوى الرسمي الفلسطيني--بإستعمال مصطلح "النكبة" بعد أن تأسست دولة إسرائيل على أنقاضنا. ذكرني أحد أصدقائي، من مخضرمي النضال الوطني الفلسطيني بأن إستعمال المصطلح بدأ مع المؤرخ عارف العارف (في أجزائه الستة عن النكبة، 1956-1961)، ودرج هكذا. أما صديق آخر، الذي كان مقربا من منظمة التحرير في بيروت، أصر بأن مصطلح "النكبة" إقتبس في الواقع من "**نكبة البرامكة**"، التي "تشير إلى ما وقع للبرامكة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد من قتل وتشريد، ومصادرة أموال" لؤلئك الذين "كانوا وزراء الدولة وأصحاب الأمر والسلطان." وأن هذه "النكبة" كانت "من أهم الأحداث السياسية المؤثرة في حكم هارون الرشيد، وفي التاريخ الإسلامي بشكل عام".

3- على كل، هذا ليس المهم في الموضوع. المهم، من وجهة نظري كفلسطيني، هو أن نفهم وندرك ونستوعب ماذا حدث لنا في فترة 1947-1948، ولماذا، وكيف يجب أن نتعامل مع هذا الحدث لنمنع تكراره وتجذيره في مستقبلنا؟

4- نستعمل "النكبة" اليوم كعنوان مختصر لتشخيص الكارثة التي حلت بنا—بشعبنا وبمجتمعنا الفلسطيني—في الفترة التي تدور حول العام 1948 عندما أعلنت إسرائيل كيانها كدولة مستقلة. وبهذا أصبحنا نقرن النصف الأول من أيار من كل سنة مع الكارثة التي حلت بنا، كالوجه النقيض لإستقلال إسرائيل. وهكذا أصبحت هذه الذكرة بمثابة الوجه المعكوس للمرآة—هم يحتفلون ونحن نندب. وبهذا الإختزال فشلنا، برأيي، في إظهار عمق وتراكم الغبن والإجحاف التاريخي الذي لحق بنا كشعب، وشمولية المسؤولية الدولية (خاصة الدول الغربية) في إحداث هذا الغبن وفي ضمان إستدامته.

5- أود أن أطرح ضرورة توسيع مفهومنا للنكبة، من حيث عمقها التاريخي والقوى المتآلفة لإنجاحها وإستمراريتها، لأن الذاكرة بحد ذاتها، والتذكير بها كأنها جزء من التراث، لا

يكفي لمنع حدو ها من جديد. أشير في البداية بأن النكبة ليست، ويجب ألا تبقى، تاريخا محددا على التقويم الوطني، يصار إلى التذكير به سنويا. أنها **عملية هادفة، زرعت بذورها في بداية القرن الماضي، وشارك في وضع أساساتها وفي تنفيذها، ليس فقط الحركة الصهيونية العالمية وأجهزتها، ولكن أيضا القوى المهيمنة على الرأسمال العالمي، وتلك الملتحقة بأفقها، والتي إنتصرت في الحربين العالميتين الأولى والثانية، والأجهزة الدولية التي أنشأتها هذه القوى إثر تلك الإنتصارات، لتثبيتها، مثل عصبة الأمم والأمم المتحدة، إلخ.**

6- إستهدفت هذه العملية إقتلاع السكان العرب الفلسطينيين الأصليين من أرضهم، وتطهير هذه الأرض، وإحلال مستعمرين يهود صهيونيين من زوايا العالم المختلفة مكانهم، بهدف إنشاء دولة يهودية صهيونية عنصرية إقصائية، اسعى إلى الهيمنة على المنطقة بأكملها. ومن هذا المنطلق، وبما أن عملية التطهير والإحلال هذه أدت إلى قتل وتشريد ما يزيد عن ثلثي السكان الأصليين الفلسطينيين، وتدمير وإقتلاع ما يزيد عن 531 تجمع سكاني فلسطيني، وما زالت مستمرة في إستعمال الأساليب ذاتها في المناطق الفلسطينية الأخرى التي إحتلتها فيما بعد، تصبح النكبة بجوهرها عملية مستمرة ودؤوبة في تغييب وإلغاء الذاكرة الجمعية الفلسطينية.

7- التحالفات التي تمت لتحقيق "النكبة"، والتي يعاد إنتاجها وتجميعها اليوم، لم تتم على أسس ومعايير دينية أو إثنية أو إقليمية، بل تمت آنذاك على أسس تسعى لتحقيق إستعمار إحلالي في فلسطين، يحول دون أدنى إمكانية لإستقلالها الآني أو المستقبلي، وعلى أن تصبح هذه الأرض التي تم تطهيرها من سكانها الأصليين إمتدادا لمراكز الرأسمال الغربي، والتي كونت الصهيونية العالمية مقوما أساسيا فيه، وموقعا مواتيا لفرض هيمنته الإقليمية. وما نلاحظه اليوم هو إستمرار لهذه العملية "النكبوية"، بدعم مباشر وغير مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وعدد كبير من الدول التابعة، ومما يسمى بالأجهزة الأممية، تحت غطاء ما ينعت ب"المجتمع الدولي"، والتي تهدف إلى تحويل هذه المنطقة إلى موقع إقليمي كمحيط ملحق بمركز الرأسمال المعولم.

8- أية دراسة معمقة لهذا الفصل من تاريخ فلسطين والمنطقة لا بد أن تصل إلى الإستنتاج بأنه يوجد تجمع، لما أسميه ب "**وكالات النكبة**". وأن هذا التجمع الذي بدأ بتأسيس "الصندوق القومي اليهودي" في العام 1901 وتسجيله في العام 1907، أخذ بالتوسع التدريجي ليشمل بريطانيا، من خلال وعد بلفور، حتى أهلها ذلك إلى ببسط سيطرتها من خلال "الإنتداب البريطاني"، بقرار من عصبة الأمم؛ وإلى التحالفات المتعددة التي نجحت في إطار الأمم المتحدة، بدعم القوى السياسية والإقتصادية المهيمنة آنذاك نتيجة إنتصارها في الحربين العالميتين، بفرض وصفات متعددة لتجزئة أرض فلسطين.

9- يجدر بنا أن نلاحظ بأنه منذ بداية هذه العملية لم تسع أي من "وكالات النكبة" إلى إيجاد حل مقبول وعادل للسكان الفلسطينيين الأصليين في أرض فلسطين، بل تركز كل المجهود المبذول على كيفية إيجاد حل "مقبول" لما سمي ب"القضية اليهودية"، دائما على أساس وجود "يهودي" مستقل في فلسطين. أي أن القاعدة الأساسية والمحركة لهذه العملية كانت

دوما تجزئة فلسطين، والتركيز على تبعية السكان الأصليين للأقلية اليهودية.

10- وإلا فكيف نفهم إنشاء صندوق قومي يهودي هدفه الواضح والمعلن التسلط على الأرض والأملاك المنقولة وغير المنقولة، في "فلسطين وسوريا وأجزاء من تركيا وشبه جزيرة سيناء"، والحفاظ عليها كملكية حصرية ل"الشعب اليهودي"، وتحريم بيعها "لغير اليهود"، وإقصائها من إمكانية أية عمالة عربية (من السكان الأصليين) عليها، أي، بمعنى آخر، ضرب وتحجيم الإنتاج الزراعي للسكان الأصليين، وإمكانيات الإصلاح الزراعي؟

11- أو كيف نفهم بأن بريطانيا إلتزمت في العام 1917 بالمساعدة في "إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين"، وأنها بعد أن نجحت في الحصول على موافقة عصبة الأمم لبسط هيمنتها على فلسطين، تضمن صك الإنتداب النص الأساسي لوعد بلفور، مع تعديلات بسيطة؟

12- أو كيف نفهم موافقة نظام الإنتداب البريطاني في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي بمنح إمتيازات إقتصادية إحتكارية لشركات صهيونية تفتح لها الطريق للتسلط على المصادر الإقتصادية الإستراتيجية، مثل شركة فلسطين للكهرباء، وتطوير المعادن في البحر الميت، وشركة فلسطين لتطوير الأراضي، إلخ؟

13- أو كيف نفهم موافقة نظام الإنتداب البريطاني على أن تنشئ الحركة الصهيونية نظاما تعليميا مستقلا عن النظام الحكومي، وحصريا للإستيطان اليهودي، بدل أن تصر على الإستثمار المشترك في تطوير النظام التعليمي القائم في فلسطين، إذا لم يكن الهدف التأسيس لوجود يهودي صهيوني في فلسطين، منفصل عن السكان الأصليين، ومحتكر لمصادرهم الطبيعية، ويثقف على أساس أسطورة تاريخية تلغي وجودهم؟

14- **بدأت جذور "النكبة"، بتقديري، بتطبيق الإستعمار الإحلالي وربط نجاحه بتجزئة فلسطين التاريخية كذريعة لإيجاد حل ل"القضية اليهودية" التي خلقتها أوروبا.**
وتعاظمت عملية النكبة من خلال إحداث وتحالف ودعم "وكالات النكبة" التي نجحت في النهاية في إحتلال مجمل فلسطين.

15- إنطلاقا من هذا التشخيص، أود أن أنهي بالتركيز على السؤال التالي: ماذا يجب أن نعمل لكي نمنع تجذير عملية النكبة في مستقبلنا، والذي آمل أن يتطرق له الزملاء والزميلات في الجلسة الثالثة اليوم. ولكن قبل أن أنهي، وكمساهمة في النقاش، أطرح النقاط التالية المرتكزة على فرضيتين: الأولى، أخذ المبادرة لوضع إستراتيجية فلسطينية جديدة لتحرير العقل والمكان؛ والفرضية الثانية، إشراك جميع القوى في العالم الساعية والعاملة لإنهاء عملية النكبة. وهذا يتطلب:

16- إستبدال التفكير الحالي المعتمد على أن تجزئة أرض فلسطين ستؤدي إلى حل عادل ومستديم يحقق حقوق الشعب الفلسطيني المغيبة خلال قرن من الزمن، بتفكير يعتمد مجمل أرض فلسطين كوحدة الحل المستقبلي، وإيقاف جميع المحاولات والمفاوضات

والإتصالات الهادفة إلى عكس ذلك.

17- العمل بكل وضوح ومثابرة على **تفكيك** جميع هيكليات النظام العنصري الإقصائي المهيمن، الذي يمنع الفلسطينيين—السكان الأصليين—في هذه الأرض، من العودة والعيش على أرضهم، ومن ضمان ممارسة حقهم الإنساني، الطبيعي والسياسي والثقافي، كمواطنين متساوين، وإستبداله بهيكليات دمقراطية، تضمن عدم التمييز والإستغلال **لجميع** فئات السكان في فلسطين/إسرائيل التاريخية.

18- إعادة النظر في خارطة الحلفاء والأعداء والمناصرين العشوائية الراهنة، وإستبدالها بخارطة جديدة على أساس مفهوم جديد لمن هو الحليف أو المناصر، ومن هو العدو، إلخ، على أن تتحدد أسس ومعايير هذا التحالف أو العداء بكل من يعمل على عدم تجزئة فلسطين، وبكل من يسعى لتحقيق نظام ديمقراطي فعلي لجميع سكان أرض فلسطين التاريخية.